بلاء الكتب

وما من كاتب الاَّ وبلى ويبقي الدهر ما كتبت يداهُ

هٰذا كلام سمعناهُ في صبانا وكتبناهُ ونحن ننظم الكتابة واتخذناهُ حقيقة مقرَّرة لا محل للريب فيها ثم رأينا عليهِ الادلة الكثيرة والشواهد الوفيرة لا من حيث بلاء الكاتب فانهُ من المعلومات المقررة بل من حيث بقاء ما يكتبهُ . ففي المكاتب الواسعة الوف من كتب الخط كتب بعضها منذ مئة عام او مئتين او خمس مئة او اكثر الى الف عام . واذا بلغت هٰذا الحدّ الاخير من القدَم لم تكن اوراقها من القرطاس بل من رقوق الجلد المجعولة كالقرطاس وهي شاهد عدل على ان الدهر يبقي ما كتبهُ الانسان ولو بلي الكاتب وامسى في خبر كان

وفي الدفائن المصرية ما هو ادلُّ من ذلك على بقاء المكتوب فان فيها درجاً من البردي صبرت على اثياب الدهر التي عام او ثلاثة آلاف او اكثر ولم تزل على رونقها الاول منقوشة مزوقة باحبار مختلفة الالوان ورسوم مختلفة الاشكال وهي ليست من جلود الغزلان والحملان كالرقوق التي شاعت بعدها بل من لب نبات البردي النابت في آجام هٰذا القطر من مادَّة هشة تشقُّ قدداً ويلصق بعضها ببعض وتصقل فتصير رقوقاً كالقرطاس وهي على صفائها اثبت على نوائب الزمان من الورق الذي نكتب عليهِ هذه السطور

كنا بالامس في مجلس دار الكلام فيهِ على الفوضى الحالية التي ضربت اطنابها في القطر المصري منذ خمسة اعوام او ستة وكان بعض الحضور يشكو من كثرة الجرائد والكتب التي لا قيد لها ولا تقييد لاقلام كتابها فتثبت على القرطاس اقوالاً خطاؤها اكثر من صوابها وآراء سقيمها اوفر من سليمها حتى اذا طالعها المرء اصبح في ليل من الشك مظلم او ضلَّ بها عن سواء السبيل في اكثر الامور العملية . واستشهد المتكلم بقول المرحوم عالي بحث الاميركي وكان قد اتخذ معلماً يعلمهُ العربية فلم يحسن تعليمهُ فقال لهُ أنا الخطأ فانا اعرفهُ من غير معلم فان كنتَ لا تعلمني غيرهُ فلا حاجة بي اليك . وقال هٰذا شأن اكثر ما يكتب الآن فانهُ يعلمنا الخطاء ونحن في غنىً عنهُ . فخطر ببالنا امرٌ طالما حسبناهُ مصلحاً لهذه الفوضى وهذا التضليل وهو ان اكثر الورق المستعمل الآن للطباعة لا يحتمل البقاء خمسين عاماً فاذا قام ابناء ابنائنا بعدنا لم يجدوا من الكتب والجرائد التي نشكو منها الآن غير رقم بالية . وقد يذهب البريءُ بجريرة الاثيم والصالح بجريرة الطالح بل قد يذهب الحسن ويبقى القبيح ولكن

ناموس الانتخاب الذي خضع لهُ كل حيّ وتسلط على كل الاعمال لا بدَّ من ان يشمل انتخاب الاقلام فيساعد القوى الكيماوية على اتلاف ما لا فائدة منهُ وبقاء ما يصلح للبقاء

هذا ولنعد الى موضوع حضرة المقالة وهو بلاء الورق وما يطبع عليهِ فنقول ان المحسنين يقتنون المجلد التاسع من المقتطف يرون الجزء السادس من اجزائهِ قد اصفرَّ وكاد يسود وذلك انا لما انتقلنا بالمقتطف الى هذا القطر لم يخطر لنا ان نبهنَّ لهُ الورق الذي نطبع عليهِ عادةً فابتعنا لهُ من الورق الذي وجدناهُ في العاصمة حينئذٍ فاصفرَّ وربدَّا وربدَّا وامسى في الحالة التي هو فيها الآن لان جانبًا كبيرًا منهُ خشب والخشب يتحد بالاكسجين الهواء فيصفرّ او يسودّ ويصير فحمًا . وعلى هذا النمط تجد ورق اكثر الجرائد اليومية يصفر بعد ايام قليلة ولا سيما اذا تعرَّض للشمس بخلاف ما لو كان مصنوعًا من القطن والخرق القطنية فانهُ لا يصفر بتعرُّضهِ للشمس والهواء بل يزيد بياضًا . وقد يتعرَّض الورق للبلاء لامور كثيرة الخشب فيهِ بل كثرة التراب الابيض الذي يضاف اليهِ وقت صنعهِ ليزيد بهِ ثقلاً وبياضًا

وسنة ١٨٧٠ انتبه رجال الحكومة في بلاد بروسيا الى ما يحلُّ بالسجلات الرسمية من البلاء المتواصل ورأوا انهُ لا بدَّ من نسخها على ورق جيد اذا اريد حفظها من الضياع واجتمع حافظو السجلات في مدينة لندشت سنة ١٨٨٠ وبحثوا في هذا الموضوع فقرَّر بعضهم ان السجلات كلها عرضة للتلف بسبب حموضة ورقها ورداءة حبرها وعينت حكومة الدنمرك لجنة للبحث في هذا الموضوع سنة ١٨٨٦ فقرَّرت ان سجلات الدنمرك عرضة للفناء ايضًا بسبب رداءة ورقها ومن ثمَّ قرَّ القرار على الوسائل التي تجعل الورق يأمن من ذلك فأصلح حينئذٍ الدنمرك من ذلك الحين

ولما شاع فساد الورق وعلم انهُ سريع التلف اقرَّت اكثر الحكومات الاوربية على امتحان الورق الذي تستعملهُ قبل استعماله وجرت المانيا والنمسا وروسيا والدنمرك على ذلك فلا يستعمل الورق في دواوينها ما لم يمتحن نوعهُ اولاً وتثبت جودتهُ حسب الشروط الذي يستعمل لهُ . اما انكلترا فلم تضطر الى ذلك لان معامل الورق فيها اذا عملت ورقًا جيدًا ووضعت علامتها عليهِ اكتفي بقولها لانها صادقة لا تغش

ثم ان الكتب قد تتلف او تزول لا من رداءة الورق بل من رداءة الحبر فان الحبر قد يبلي الورق كما يظهر في كثير من الصكوك القديمة وقد يزول من نفسهِ ككثير من اخبار الانباء الحديثة ولذلك اقرَّت بعض الحكومات الاوربية على ان تمتحن الحبر الذي تستعملهُ امتحانًا كيماويًا قبل استعماله فاذا وجدتهُ جيدًا فتفقة الامتحان عليها واذا وجدتهُ رديئًا فتفقة

الامتحان على صاحبهِ ويعاتب اينما كمن باع بضاعة مغشوشة

فيستنتج مما تقدم ان الصكوك والحجج وكل ما يراد حفظهُ يجب ان يكتب على ورق جيد خالٍ من المادة الحشية . وهذا يجب ان تنتبه لهُ الحكومة قبل غيرها اذا ارادت حفظ اوامرها واوراقها الرسمية . وكذلك يجب على المؤلف الذي يضن بمؤلفاتهِ ان يطبعها على ورق جيد لا يسرع البلاء اليهِ

المكاتب المدفونة

ذكرنا في المقالة السابقة ان دروج البردي التي وجدت في القطر المصري مرَّ عليها مئات والوف من الاعوام ولم تزل خطوطها مقروءة ونقوشها ظاهرة على رونقها وقد رأينا ان نشرح هذا الموضوع بالاسهاب ولا سيما لانهُ قد ظهر الآن لمنفر الدروج فائدة جديدة لم تكن تنتظر فنقول

كان المصريون يزرعون البرديَّ زرعاً ويقطعون سوقهُ في اوقات مخصوصة لعمل الورق وكان ورقهم خاصًّا بهم وظلوا على ذلك الى ايام الدولة السادسة والعشرين التي حكمت من سنة ٦٦٤ الى ٥٢٥ قبل المسيح اي منذ ٢٥٠٠ سنة وحينئذٍ فتحت الثغور المصرية للتجارة فصار ورق البردي يصدر منها مثل غيرهِ من غلات القطر ومصنوعاتهِ . وزاد استعمالهُ كثيرًا بعد قيام الاسكندر المقدوني وتدويخهِ بلاد المشرق وانتشار العلوم اليونانيَّة فيها . واتسعت تجارتهُ وكثر صدورهُ من مصر إلى ايام بطليموس فيلومتور فغار من ملك برغاموس صاحب المكتبة الشهيرة التي كان فيها مئتا الف مجلد ومنع صدورهُ من القطر المصري فاضطرَّ ملك برغاموس ان يصنع الرقوق من جلود الحملان

وكانت معامل ورق البردي منتشرة في القطر المصري ولا سيما في الاسكندرية . ولما عظم شأن رومية جعلت تجلب ورقها كلهُ من مصر فصارت مصر بلاد الوراقة للحكومة كلها ثم ان طلب رومية للورق زاد زيادة عظيمة لما صارت ام المدائن ومركز الحكومات فلم يعد ورق البردي كافياً لمطالب الناس فامر طيباريوس قيصر ان يستعمل بالقسط لئلاَّ ينفد سريعاً " فتتشوش احوال البلاد "

وكان اهل الاسكندرية لا يدعون بابًا للكسب الاَّ طرقوهُ وكان الصنَّاع منهم دائبون على صناعتهم يزاولون العمل يومًا بعد يوم بلا انقطاع . قال هدريانوس في كتاب الى القنصل